

مظاهر المحبة في الله تعالى

ومن ثواب ذلك أو من علامته: أن يجد لهذه المحبة حلوة في قلبه. في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: { ثلاث من كن فيه وجد بهن حلوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار } . أن يحب المرء لا يحبه إلا لله؛ أي لأجل صلاحه، يحبه لأنه من عباد الله الصالحين، يحبه لأنه يحب الله، ولأن الله يحبهم فيحب كل من يحبه الله، ومحبة المحبوب محبوب، كما هو مشاهد من أحب شخصا أحب كل من يحبه. ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: " من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان -وإن كثرت صلواته ووصومه- حتى يكون كذلك، ثم يقول: وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئا". فهكذا في عهد ابن عباس رضي الله عنهما -أنكر على أهل زمانه أنهم يتحابون لمصالح دنيوية، إذا سألت إنسان من تحب من الناس؟ يقول: أحب فلان؛ لأنه أعطاني، وفلانا لأنه أقرضني، وفلانا لأنه شفع لي، وفلانا لأنه وسع لي، أو كفلني، أو أكرمني، أو أعطاني، أو ما أشبه ذلك. ثم تراه يبغض آخرين. لماذا تبغض فلان؟ لأنه حرمني من كذا؛ طلبته قرصا أو سلفة فلم يعطيني، أو طلبته شفاة فلم يشفع أو ما أشبه ذلك. هل تنتقد عليه أمرا في دينه؟ فيقول: لا. هل هو يشهد الزور؟ هل هو يقول بالكذب؟ هل هو يغش في المعاملة؟ يقول: لا. هل هو يأكل الحرام؟ إنما فقط يبغضه؛ لأنه لم يعطه أو لأنه لم ينفعه، مع أنه قد يكون له عذر في عمله هذا أو في فعله. لا شك أن هذه هي التي يقول ابن عباس مؤاخاة الناس على أمور الدنيا، وهذا بلا شك ما ينفعهم، لا يجدي على أهله شيئا. أي: لا يفيدهم. إنما الذي يبغضه أثره هو المحبة لله تعالى، وأما المحبة لأجل المصالح الدنيوية فإنها تضمحل؛ ولذلك يخبر الله تعالى في الآخرة بأن بعضهم يتبرأ من بعض، كما في قول الله تعالى: { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } كانوا في الدنيا يتناسرون ولكن على أمور دنيوية، أو على معاص ومحرّمات أو ما أشبه ذلك، فكانوا متحابين ومتوالين على أمور الدنيا، فإذا جاء يوم القيامة؛ فكل منهم يتبرأ من الآخر، ويتمنى أنه ما صحبه. قال الله تعالى: { الْأَخْلَاءُ تَوَمَّنًا يُفِئُ غَدُوًّا وَالْمُتَّقِينَ } الأخلاء؛ يعني: الأصدقاء الذين كانوا صدقاتهم في الدنيا على أمور دنيوية، أو على معاص ومحرّمات. { بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } كل منهم يتمنى فراق الآخر إذا اجتمعوا في النار -والعياذ بالله- يقول الله تعالى: { وَمَنْ يَبْغِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا قَوِيًّا لَهُ قَرِينٌ وَهُمَا لِيَكْفُرُوا بِهِمَا وَيُفِئُوا كَفْرًا مُّؤْتَمَرِينَ } ؛ يعني يصفونهم عن الحق بعد إذ جاءهم عن الصراط المستقيم، عن الهدى. ثم إنهم في يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض؛ ولذلك قال تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْ } فرأها بعضهم: (جانا) يعني هذان القرينان، { قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَدْعُ الْمَشْرِقِينَ قَبْسُ الْقَرِينِ } ؛ أي ينس الصديق ونس المحب؛ حيث إن المحبك أوقفنا؛ أوقفنا في الذنوب، وأوقفنا في ترك الصلوات، وأوقفنا في شرب المسكرات، وأوقفنا في سماع الأغاني المحرمة، وأوقفنا في ترك العبادات، وفي الخلل بالواجبات: { قَبْسُ الْقَرِينِ } وُلْنُ بَعْضُهُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ } ما ينفعهم كونهم يشتركون في العذاب، ولا يخفف ذلك عنهم. وأما إذا كانوا من أهل الخير فإن صدقاتهم تبقى، وكذلك محبتهم في الدنيا، وكذلك محبتهم في الآخرة، فهم أصدقاء متحابون متوادون ولو كانت ديارهم متفرقة، ولو كان بينهم مئات، أو الوفاء الأصيل؛ فإن القلوب مجتمعة، أما إذا كانوا؛ مودتهم على المحرمات ونحوها؛ فإنهم يتفرقون في الآخرة، ويسب بعضهم بعضا، كما في قول الله تعالى: { ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّبَعْضِكُمْ بَعْضًا } . ويقول الله تعالى: { الْأَخْلَاءُ } ؛ يعني الأصدقاء { تَوَمَّنًا يُفِئُ غَدُوًّا } إلا المتّقين { المتّقون تبقى محبتهم، وتبقى مودتهم، ويتقون متصادقين في الآخرة، وكذلك يجتمعون في دار كرامة الله عز وجل، ولو كانوا متباغدين في البلاد، ومتباغدين في الأنساب، يجتمعون، ويفرح بعضهم بلقاء بعض، ويكون ذلك من جملة الثواب، { الْأَخْلَاءُ } يعني الأصدقاء والأحباب: { بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } . أما الذين محبتهم على أمر الدنيا فإنها تضمحل هذه المودة وتتغير عندما تتغير أسيابها، فتجد اثنين، أو جماعة متصاحبين متصادقين كأنهم إخوة، ثم يأتي عليك وقت قصير، وإذا بعضهم يسب الآخر، ويتمنى أنه لا يجالس، وتقع بينهم الهجران والسباب، فتسأله: ألمت كنت صديقا لفلان؟ كنت أعرّفكم، واتم كالإخوة متحابين تجالسون، وتسافرون جميعا، ويزور بعضهم بعضا، ويحب بعضهم بعضا، ويصلي أحدهم صاحبه ما طلبه، كيف تغيرت هذه المحبة؟ وكيف تغيرت هذه الصداقة في وقت قصير؟ هل أبغضته لأنه أحدث في العقيدة -معنى أنه اعتقد عقيدة سيئة: ابتدع أو عصى الله أو كفر أو أساء في حق الله عز وجل-؟ فيقول: حاشا لأنهم، هو مستقيم في دينه يصلي، ويصوم، ويزكي، ويذكر الله، فيقرأ القرآن، ولا يركب شيئا من المحرمات، ولا أتهمه بسوء؛ لا يفاحشة، ولا بزنا، ولا بخمر، ولا برشوة، ولا بربا، ولا لماذا هجرته؟ لماذا أبغضته؟ فيقول: إنه هو الذي هجرني، دعوته فلم يجبني، أو أومل ولم يدعني، أو اقترضت منه فلم يعطيني، أو ما أشبه ذلك من الأمور الدنيوية. هذا دليل على أن المحبة ليست محبة دنيوية. المحبة التي هي محبة الله، ومحبة من يحبه الله لا تتغير بأمور الدنيا، بل هي راسخة في القلوب، مثلثة بها القلوب، لا تغيرها الأمور الدنيوية، وهذه هي التي يتصف بها العباد الصالحون الذين لا يغيرهم شيء من الأمور التافهة الدنيوية. أما المؤمنون الحق فإنه يختار الصالحين فيصالحهم، ويصادقهم، يجالسهم؛ لأنهم صالحون؛ فيحبهم لأن الله تعالى يحبهم، يحبهم لأنهم من الكفّار الذين يعبدون ربهم ويخشعون له، يحبهم لأنهم يتقربون إلى الله بالقربات والعبادات التي يحبها الله، يتقربون إليه بالأعمال الصالحة، يحبهم لأنهم يقرءون كلام الله ويتدبرونه، لأنهم يكثر من ذكر الله، ويدعون الله، ويحبهم لأنهم يفعلون الخير يتصدقون، ويصومون، ويجحون، ويعتصرون ابتغاء وجه الله، يحبهم لأنهم منتزهون عن الآثام، وعن أنواع الإجمام، وعن اقتراف شيء من المحرمات، يحبهم وإذا أحبهم حرص على أن يكونوا جلساءه، وأن يكونوا جميعا مؤمنين له مقترنين به. ويبغض من يبغضهم الله تعالى، ويتعد عنهم ولو كانوا أقارب له، ولو كانوا من أسرته، ولو كانوا من قبيلته، أو من بلدته، فيبغض كل من يبغضهم الله، ويحب كل من يحبه الله؛ محبة وبغضا لله تعالى، وهذا هو أوثق عرى الإيمان: كما ورد في حديث: { أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله } يعني أقوى عرى الإيمان. ولما ذم النبي صلى الله عليه وسلم أهل المصالح الدنيوية سماهم عبيدا لدينهم في قوله: { تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخبيصة، تعس عبد الخميعة } لماذا كان عبدا له؟ لأنه يحب لأجل الدينار، ويبغض لأجل الدينار، ويوالي لأجل الدينار، ويعطي لأجله، ويمنع لأجله؛ المعنى أنه كأنه عابد لهذه الدنيا، عابد لأهلها، كأنه عابد للمال؛ يبغض من يربح من أعطاه، ويحب من أعطاه، ولا صلاح ولا غير ذلك. وإذا كان كذلك فإن على المسلم أن يحرص على أن يكون أصدقاؤه من عباد الله الصالحين، أن يكون أصدقاؤه وجليساؤه وأحبائه وأولياؤه -هم أولياء الله الذين يحبه الله- ويحبهم لمحبة الله. الذين أصلحوا أعمالهم، وصدقوا في ذلك فيه جلساؤه وأنساؤه وأولياؤه، ويتعد عن أصدادهم ممن ليسوا كذلك، كما ورد في السنة الترغيب في مؤاخاة، ومجالسة الصالحين من عباد الله. ذكر أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أبعد عنا هؤلاء العبيد، لا ترانا العرب ونحن نجالسهم. يريدون المؤمنين من المماليك؛ لأنهم ضعفاء كليل وصهيب وخباب وعمار؛ يعني ضعفاء من المماليك، أسلموا وكانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم، فقال المشركون: لا تجالسك وهم معك، بعدهم عنا. فكانه طمع أن يؤمن أشرف الكفار ووجهواؤهم، فأراد أن يبعد هؤلاء الضعفاء؛ فعند ذلك أنكر الله عليه قال تعالى: { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ يُرِيدُونَ وَجْهَ مَا عَدَّلْتَ مِنْ حِجَابٍ مِّنْ حَيْثُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ } ؛ أي لا تطرد هؤلاء المساكين، ولو كانوا فقراء، ولو كانوا مماليك في الأصل، بل عليك أن تجالسهم، وأن تبقى معهم. { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ } يعني مؤمنين، { يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ } أول النهار وآخره. { يُرِيدُونَ وَجْهَ مَا عَدَّلْتَ مِنْ حَيْثُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ } ؛ أي لا تطرد الذين يدعون ربهم بالغيب وهم يريدون وجهه؛ ولكن علم الله تعالى أن هؤلاء هم الذين يصدق عليهم أنهم أولياؤه وأنهم أحبائه؛ فأمره بأن يبقى معهم. وأنزل عليه أيضا قول الله تعالى: { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ يُرِيدُونَ وَجْهَ } ؛ أي احبس نفسك، وابق مع هؤلاء ولو كانوا من المساكين، ابق معهم: { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ يُرِيدُونَ وَجْهَ } ولا تعد عتباك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا؛ أي: لا ترفع نظرك إلى غيرهم تريد زينة الحياة الدنيا؛ فإن الله تعالى يرزقك ويغنيك من فضله. ولا تطمع فيمن هم من أهل الدنيا، ومن أهل المصالح الدنيوية، الذين همهم الدنيا، وليس همهم الآخرة: { وَلَا تَعُدَّ عِتَابَكُ عَنْهُمْ نِدْمَ رَبِّتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } . فهكذا أمر الله تعالى نبيه بأن يكون جلساؤه وأحبائه هم الصالحين، ولو كانوا من الفقراء؛ فكل من كان من الصالحين ومن الأخيار، ومن عباد الله الذين مجالسهم مجالس ذكر، ومجالس علم، ومجالس إيمان، والذين لا يخوضون في مجالسهم في غيبة ولا نيمية ولا سب، ولا قذف وعيب وهجاء، ولا كلام سيئ، ولا غناء وخرم وزمر، ولا شيء من المحرمات، ينزهون مجالسهم عن مثل هذه المحرمات، إنما هي مجالس علم؛ قال الله، وقال رسوله، وحكم كذا ويان كذا وكذا، أو كلاما مباحا لا يضر، ولا يقدح في دين، ولا في عدالة، أو نحو ذلك. فهذه هي مجالس أولياء الله الصالحين؛ ولذلك نهى الله تعالى نبيه، ونهى أيضا الصالحين من الأئمة عن مجالسة الفاسقين، فقال تعالى: { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } إذا مررت بمجلس أهل يخوضون في ذلك المجلس في آيات الله، ويستهنئون بها فيفسخون من الصالحين؛ يسخرون من عباد الله الصالحين ويتقصونهم؛ فإياك أن تجلس معهم، أو إياك أن تغبطهم في مجالسهم. { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } ؛ إذا نسيت مثلا وجلست معهم، ثم تذكرت فيهم: { فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } أي بعدما تذكر قم ولا تقعد بعد الذكرى معهم. ويقول في آية أخرى: { وَقَدْ تَرَّجَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْفُوا عَنْهُمْ } ؛ يعني إذا جلستم معهم وهم يستهنئون بآيات الله، ويتمسخرون من الصالحين، فيصفون أهل الخير بأنهم رجعيون، وبأنهم ضعفاء المعرفة، وبأنهم أهل بلادة وأهل تفاهة، ويحتقرون الخير، ويحتقرون أهله، ويسخرون من أولياء الله، ويسخرون من جلسائه الصالحين؛ فلا تفقد معهم، فإذا جلست معهم فأنت شريك لهم في هذه المجالسة، وفي هذه الكلمات: { إِنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ } . وإنما على المسلم أن يكون جلساؤه وأصحابه هم أهل الخير من كانوا، وأينما كانوا، يحرص على صحبتهم وعلى مجالستهم ومصافحتهم، كما ورد في الحديث قول النبي صلى الله عليه وسلم: { مثل المجلس الصالح والجلس السيء؛ كحامل المسك وناقح الكبر. فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن يعطيك، وإما أن يتباع منه، وإما أن تجد منه رائحة طيبة.. وناقح الكبر: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة خبيثة } مثل واقعي؛ وذلك لأن المجلس الصالح ينصحك، ويرشدك، ويدلك على الخير، ويبينه لك، ويساعدك عليه، ويحذرك عن الكسل، وعن التناقل عن الصلوات، وعن التناقل عن العبادات، ويحثك على كثرة الأعمال الصالحة: على الذكر، وعلى القراءة، وعلى الدعاء، وعلى النفقة فيما يحبه الله، وعلى مواصلة العبادات، وبنهاك عما يقدح في عبادتك، وما يقدح في ديانتك. وأما المجلس السيء فإنه يصد ذلك: يكسلك عن الطاعة، يكسلك عن الخير، يكسلك ويتبسطك عن فعل الخيرات وعن فعل الواجبات، ويتقل عليك أمور الطاعة وأمور العبادات. وكذلك أيضا يزين لك المعاصي؛ فيحب إليك شيئا من المحرمات، يتكلم معك وأنت تتكلم معه أو تجاربه في كلامه السيئ في سخرية أو استهزاء، أو تنقص لأهل الخير أو عيب أو سب، أو ما أشبه ذلك؛ ولأجل ذلك ورد الحث على اختيار الأصدقاء والجلساء الصالحين. ورد الحديث المشهور قول النبي صلى الله عليه وسلم: { لا تصحب إلا مؤمنا ولا كافرا طعاما لا تقي } ؛ احرض على أن يكون أصدقاؤك من أهل الإيمان وأهل الخير. وكذلك قال صلى الله عليه وسلم: { النبي على دين خليله فلينظر أحدكم من خليل } ؛ يعني خليله يعني صديقه، فإن كان خليله وصديقه رجلا صالحا فإنه يقاس به؛ ولذلك قال بعضهم: فلا تصحب أخ الجهل وإياك وإبناه فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه وللشيء على الشيء مقاييس وأشباهه وللقلب على القلب دليل حين يلقاه ويقول ابن عبد القوي عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي القرين: هو المجلس. لا تصحب إلا أهل الخير؛ أي الأخيار الذين يساعدونك ويعينونك: وصاحب إذا صاحبت كل موفق ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي فهكذا تكون الموالاتة والمحبة من الله وفي الله، ينبغي أن تكون محبين لأهل الخير، وموالين لهم، ومبغضين للأشرار، وأن تكون محبتي لله وفي الله؛ حتى تكون من أحب الله.